ABU ABDO ALBAGL

حكاية الناس والحجارة

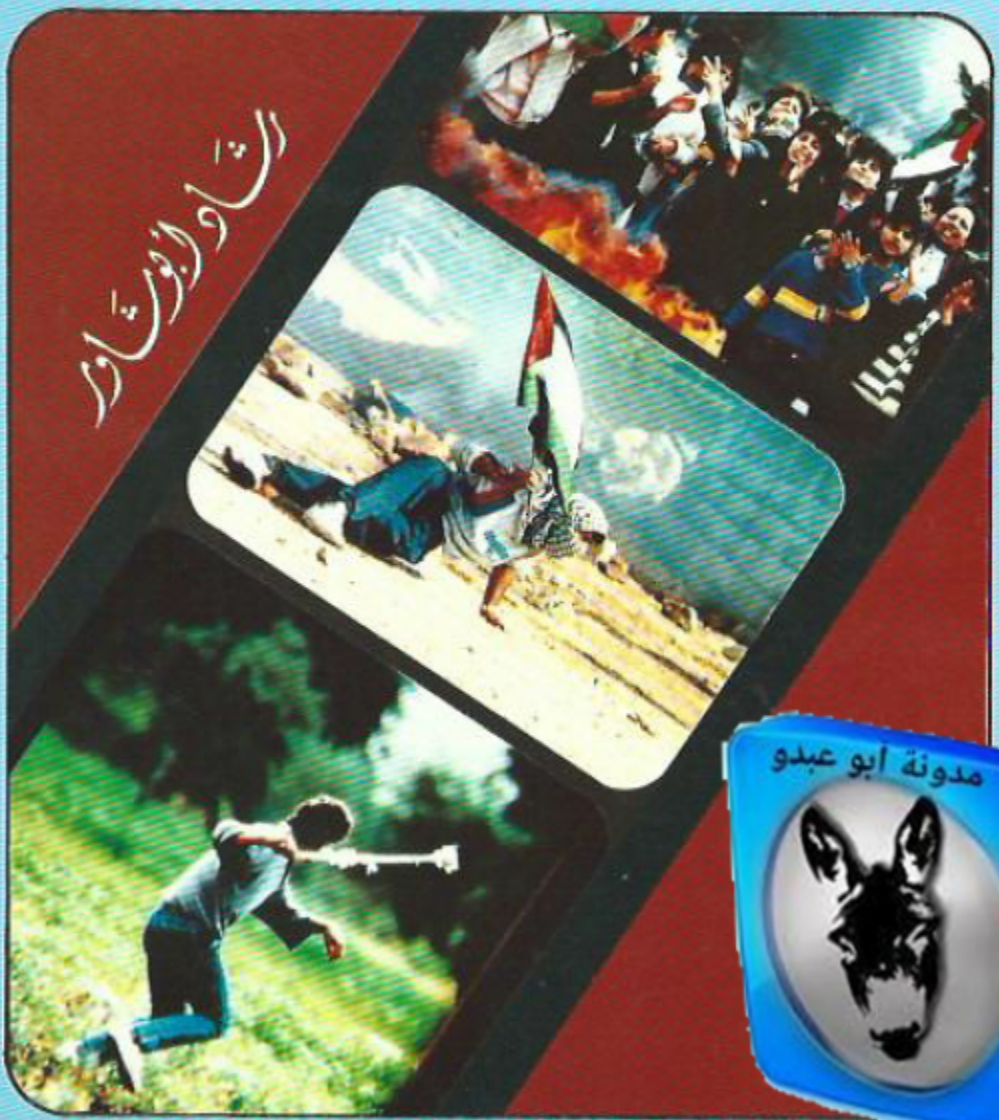

مدونة ابو عبدو

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

دار العودة - بيروت
الاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين

رشاد أبو شاور

حكاية الناس والحجارة

دار العودة - بيروت
الإتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين

حقوق الطبع محفوظة
٨٩/٣/١

يُطلب من دار العودة - بيروت
كورنيش المزرعة - بناية ريفييرا سنتر
تلفون ٣١٨١٦٥ - ٨١٥٣٣٥
تلكس E-L-٢٣٦٨٢ MEREBI
ص.ب ١٤٦٢٨٤

إهـداء

إلى
خليل الوزير
« أبو جهاد »
رمز الرصاصة ،
وعنوان ثورة الحجارة ،
الذي حمله أهله في شوارع مدن وقرى
ومخيمات فلسطين ،
والذي ، هناك ، سيواصل . . حتى
تكتمـل شمس فلسطين . . ونبني من الحجـارة البيوت
التي هُدمت ، وأسوار بساتيننا وحواكير تيننا وزيتوننا . .

رشـاد

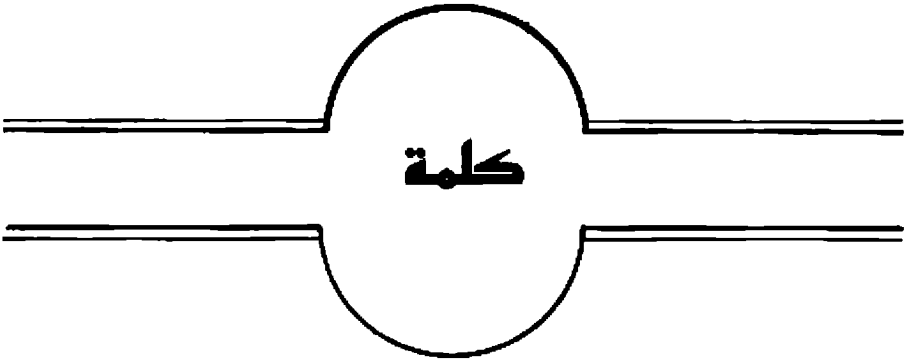
كلمة

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

هذه بعض حكايات شعبنا ،

بعض حكايات الشعب الذي يحارب بالحجارة ، ويبرد الموت بإرادة الحياة ، ويمتشق روحه وتراثه ، وأصالته في وجه كافة ، أسلحة الدمار والفتك .

الصحفيون نقلوا أخبار بطولاته إلى كل الدنيا ، والكاميرات بثت على شاشات التلفزيون شيئاً من إبداعاته ، وعبقريته وعطائه .

والمقارنة تمت وتتم بين الهمجية الصهيونية ، والروح الحضارية الفلسطينية . ولهذا ارتفعت أصوات الشرفاء وما أكثرهم - في كل الدنيا تعلن أن شعب فلسطين إنما يدافع عن الشرف الإنساني ، والكرامة الإنسانية . لقد فوجىء من فوجىء ، ودهش من دهش . بثورة الحجارة ، ولكن شعبنا هو هو لم يتغير ، وإن طور أساليبه وخبراته ، أنه شعبنا المحارب منذ مطلع هذا القرن ، والذي صاغ أعظم وأمجد ملحمة وأطول ملحمة إنسانية في هذا العصر ،

الشعراء كتبوا ويكتبون ، والسينمائيون قدموا ويقدمون ،

والـروائيون والقصـاصون ، أبـدعوا ويبـدعون ـ وكـل هذا جيـد وجميل ، لأن واحداً لن يستطيع القيام بعبء كتابة كل ملحمـة الشعب الفلسطيني ، إننا جميعنا فريق واحد ، وعلى أقلامنا تقع مسؤوليـة كتابـة السيرة الـروحية الشـامخة لشعبنـا . ولأن الأمـر كـذلـك ، فهـا أنـذا أكتب بعض حكـايـات الشعب المحـارب بالحجارة .

في حقيقـة الأمر ، أنـا لم أؤلف هذه الحكـايـات ، ولكن تابعتها ، عشقتها ، تأملتها ، و. . . كتبتها ، فهي ، إذن ، بعض إبداع شعبنا . أنا إذن قلم في يد شعبي ، وهذا القلم ، إن كان جيداً ، سينجح في مهمته وإلا فإنه يتحمل أي تقصير . وفي كل حال أنا أطمع بالحصول على أجرين ، فإن لم أبلغ هذا الهدف ، فأجر واحد لن يكون قليل الشأن . لقد وظفت خبراتي وطـاقتي ومحبتي لنقل هذه الحكايات . ولكن ، قبل وبعد كل شيء ، لا يستـطيع قلم واحـد أن يكتب ملحمـة الشعب الفلسـطيني ، أو حكايات بطولته كلها ، ولكن قلماً واحداً يستطيع أن يسهم في كتابة بعض الحكايات. . . وهذا ما فعلته .

رشـاد أبو شـاور

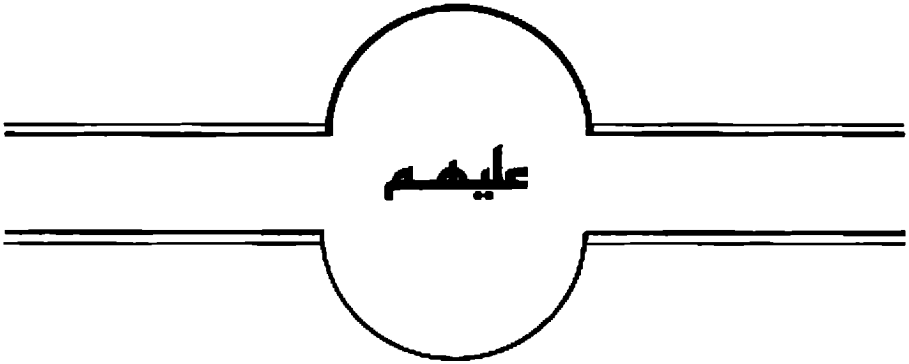
عليهم

ها هي ذي أم علي تصل القرية . لقد وصلتها رسائل كثيرة من ابنتها ترجوها فيها أن تحضر من عمان لتأخذها معها ، بعيداً عن حماتها التي نكدت عيشتها مع زوجها .

دهشت أم علي عندما وصلت القرية ، ذلك أن الأطفال لا يلعبون على عادتهم في شوارع القرية وأزقتها . والرجال لا يجلسون بجوار جدران المسجد يلعبون السبحة ، والنسوة لا يغدين ويرحن في الشوارع والأزقة .

تساءلت أم علي : يا ترى الناس ممنوعين من التجول ؟ .

ورأت امرأة عجوزاً تجلس أمام أحد البيوت على مصطبة مرتفعة . فسألتها :

ـ وين راحوا الناس يا حجة ؟

تطلعت إليها الحاجة وقالت :

ـ كلهم راحوا ، مش ضايل غير أنا والولاد الزغار ايللي في لفاعاتهم .

ـ وين راحوا يا حجة ؟

- مش عارفة وين راحوا إنت غريبة عن قريتنا . راحوا يردوا جماعة المستعمرة اللي هجموا على قريتنا .

مشت أم علي حتى بلغت طرف القرية ، سمعت ضجيجاً وصراخاً . تساءلت أين تكون ابنتها ؟

أم علي من هنا ، من هذه القرية . رحلت مع زوجها وأولادها وبناتها في حزيران —67 .

حاول زوجها العودة ، عبر نهر الأردن ، ولكن الجنود الصهاينة أطلقوا عليه النار وقتلوه ، والذين رأوا الحادثة أبلغوا أم علي .

أم علي زوجت ابنتها للشاب حسن ، الذي قضى أغلب أيامه في السجن ، والذي أنجبت له زوجته زينب ولدين وبنتاً ، لكن أمه دائمة الشجار مع زينب ، لأن أم حسن تريد مزيداً من الأولاد والبنات ، وخاصة الأولاد .

مضت أم علي على الطريق الترابي بين البساتين ، ورأت أناساً يتراكضون ، وسمعت أصواتاً تعلو .

عندما اقتربت من الناس ، ركضت إليها امرأة تحمل حجارة في يديها ،

رفعت أم علي صوتها بلهفة :

بنتي !

فرمت زينب نفسها بين ذراعي أمها .

سألتها أمها ؟

ـ ماذا تفعلين يا ابنتي ؟

ـ سكان المستعمرة هجموا يما ، واحنا هجمنا عليهم ، لازم نردهم ، ونطردهم من أرضنا ، هذي أرض قريتنا يما ، أرضنا .

ـ ما بدك تروحي معي على عمان ؟

ـ لا يما ، ما بدي ،

ـ ورسايلك يا زينب ، رسايلك المليانة شكاوى وزعل ؟

ـ الزعل والشكاوى راح وقتهم يما .

ـ واقتربت امرأة تحمل على رأسها قفة مليئة بالحجارة ،

ـ شو بتعملي يا زينب .

ـ تعالي يا حماتي ، سلمي على أمي .

ظلت يدا حماة زينب ، أم حسن ، تمسكان بالقفة ، وقالت :

ـ يلا ، يلا يا أم علي ، اهجمي معنا ، هذي قريتك يا أختي ، يلا بعدين بنسلم على بعض ، وبنقوم بواجبك .

وأطلقت أم علي زغرودة وهي ترى ابنتها تأخذ الحجارة من قفة حماتها أم حسن وتركض مع الراكضين ترجم جماعة المستعمرة .

وقبل أن تنهي أم علي زغرودتها ، ارتفع صوت أم حسن ،

عليهم ، عليهم يا زينب ، انتقمي لجوزك ؛ اللي في السجن بين أيديهم . عليهم يا أم علي ، منشان روح الشهيد أبو علي

اللي قتلوه وهو راجع لأرضه وداره .

وشمرت أم علي ثوبها ، وغرست طرفه في حزامها ، وارتفع صوتها .

عليهم ، عليهم ، عليهم يـا ولاد ، يا رجـال ، يا بنـات ، عليهم يا ناس ، اليوم طاب الموت .

الخبيـزة

ذهب نسوة مخيم بلاطة يبقلن « الخبيزة » .

استراب الجنود بما يفعلن .

رأوهن ينحنين على الأرض ، كـأنهن يصلين ، وتـقتـرب رؤوسهن ويتبادلن الحديث .

قال الضابط لجنوده :

ـ لا شـك أنهن يجمعن الحجارة ، أو يخـرجن شيئاً ، أو يدفن شيئاً في الأرض .

تقدم الضابط وتبعه جنوده ، تـركوا سيـارات اللانـدروفر ، وناقلات الجنود خلفهم على الاسفلت المتجه إلى رام الله .

الضابط يضع يده على مقبض مسدسه ـ لأنه يشك في الذي تفعله النسوة ويتوقع أن بعضهن تحمل القنابل .

أخذ الضابط يتحدث في جهاز اللاسلكي الصغير مع قيادته . أخبر قيادته أن نسوة من مخيم بلاطة يتجمعن قرب الاسفلت ، خارج المخيم . عندما وصل الضابط وجنوده إلى حيث النسـوة رأوا أن النسوة يقطفن أعشاباً خضراء من الحقل . سأل الضابط ؟

ـ ماذا تفعلن ؟

قالت له إحداهن :

ـ إننا نبقل الخبيزة .

ـ شو يعني نبقل « خبيزة »؟!

أرته المرأة العجوز أوراق الخبيزة وهي تبتسم فسألها ؟

ـ ليش ؟ منشان إيش الخبيزة ؟ .

ـ منشان نوكلها ، نطبخها ونوكلها .

همهم الضابط ، بينما كانت عيون جنوده تراقب النسوة ، وأيديهم على مقابض عصيهم ، وأزندة بنادقهم .

ـ سألته المرأة العجوز ؟

ـ ما بتعرف الخبيزة ،

ـ لا ، ما بنعرفها .

ـ إحنا بنطبخها وبنوكلها .

قالت فتاة :

ـ أهلنا في الرشيدية ، المحاصرون، هناك ، في لبنان ، بيطبخوها وبيوكلوها ، الخبيزة والعلك ، والحمصيص ، والهندبة ، ساعدتهم يصمدوا ، وضحكت العجوز فظهرت في فمها أسنانها القليلة ، سألته ؟

ـ انت ما بتعرف الخبيزة والحمصيص والهندبة .

هز الضابط رأسه .

ـ لا ، ما بعرف ،

ـ شو بتعرف لعاد ؟

ـ ما بعرف إشي ، ما تسأليني ، إحنا هون بنسأل وأنتم بتجاوبوا . .

ضحكت العجوز وهي تقول :

ـ ابتعرفش شو بتنبت هالأرض ، ومع ذلك بتقولوا إنها أرضكم ؟ وقالت الفتاة تستحث النسوة :

ـ يللا يا حجات ، يللا ، لازم نلحق نطبخ للشباب . وتطلعت إليهم العجوز .

ـ قال أرضهم ، قال ، واللّه ما بتعرفوا ربكم وين حططكم .

قالت الفتاة :

ـ ليش ربنا هو اللي حاططهم ؟ أميركا اللي حاطيتهم على صدورنا ، وعندما مرت النسوة بالضابط والجنود الذين كانوا ينظرون مندهشين ، رفعت الفتاة صوتها ساخرة .

ـ خبيزة ، فلسطينية ، الخبيزة .

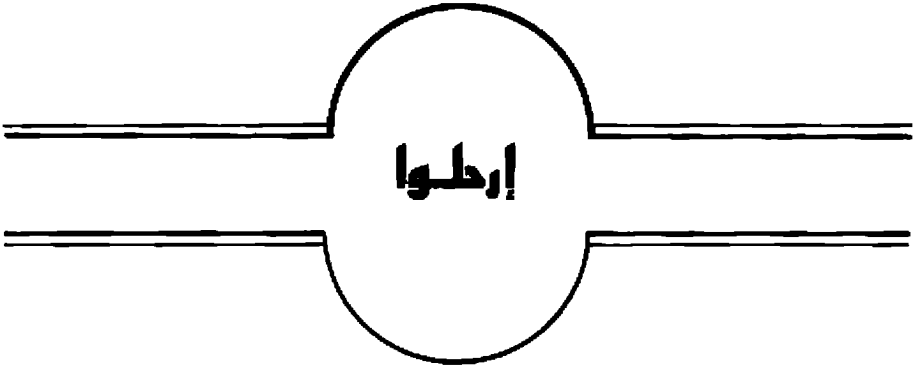
إرحلوا

اقترب الجندي المدجج بالسلاح من المرأة الفلسطينية العائدة من بيت لحم إلى مخيم الدهيشة وسألها ؟

ـ من وين جاية ؟

أجابته :

ـ من بيت لحم .

ـ ليش كنت في بيت لحم ؟

ـ كنت أزور كنيسة المهد .

ـ انت مسلمة والا مسيحية ؟

ـ مسلمة ومسيحية .

ـ كيف هيك ؟

ـ احنا هيك في بلادنا ، بإنزور الكنيسة والجامع .

ـ انت بتنقلي رسايل وأخبار من بيت لحم للدهيشة .

ـ أخبارنا مالية الدنيا .

ـ يا حاجة .

ـ بدك مني شي ؟ لازم أروح على بيتي .

ـ يا حاجة ، انت حاجة ؟

ـ لا ، بعد ما نرتاح في بلادنا بأحج .

ـ يا حاجة ، أنا صار لي خمسين يوم ما شفتش أهلي ، لازم أروح أشوفهم ، لازم أرتاح ، إحنا جنود بدنا نروح نرتاح .

ـ مين مانعكم ؟

ـ انتم ،

ـ ليش ؟

ـ لأنكم مش راضيين تنهوا الإضرابات والمشاكل .

ومشت الحاجة ، فتبعها الجندي .

ـ يا حاجة شو اللي بدكم إياه ،

ـ بدنا اياكم ترحلوا ، لازم ترحلوا ، إذا بدكم ترتاحوا وتريحونا .

ـ وغير هيك ؟

ـ غير هايك ما فش حل . أبداً ، فاهمين ؟؟

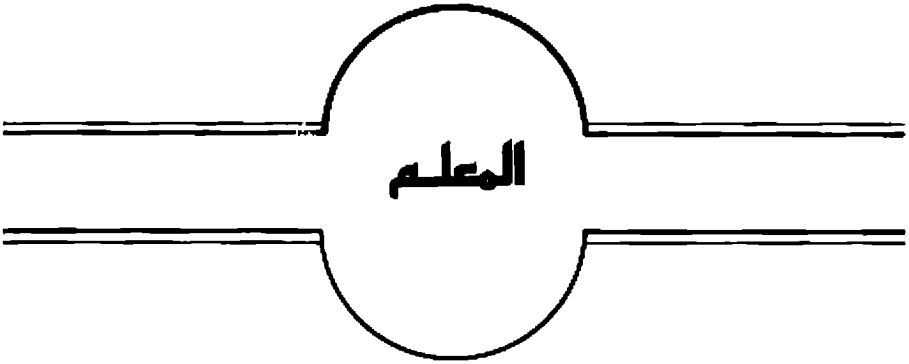
المعلم

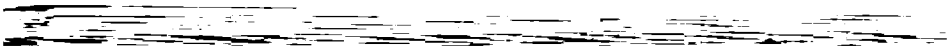

أمسكوه بعد أن تحلقوا حوله . لقد ركض الأولاد بعيداً وخلفوه وراءهم ، ولأنه صغير جداً ، ولأنه لم يتعد السادسة ، ولأنه مثل عصفور صغير ، يتعلم الطيران بجناحيه الطريين ، فقد تخلف عن سربه ووقع في أيديهم .

قال له جندي :

ـ الحجر في يدك . لن تنكر يا ملعون .

قال جندي للآخر :

ـ أنظر إليه إنه لا يبكي ، لا يبدو خائفاً ، أهو خائف أم لا ؟

رد عليه الجندي الآخر ،

ـ لا أدري ، أنت ما رأيك ؟

وسدد الآخر فوهة البندقية إلى صدره ، وأمره ،

ـ ستقول لنا من علمك رمينا بالحجارة ، وإلا سأطلق النار على قلبك الصغير وأقتلك . هنا لا توجد كاميرات لتصورك ، ستموت دون أن يعلم أحد ، هـا ، قل : من علمك رمي الحجارة ؟

ـ إنه أخي ، أخي محمد .

ـ برافوا ، وأين أخوك محمد ؟

ـ في دارنا ،

ـ هل تأخذنا إلى داركم ؟

ـ آه ، سآخذكم ،

قال الضابط ،

ـ يبدو أننا سنمسك بطرف خيط . إذا أمسكنا بشقيقه محمد فربما نمسك بمن هم معه من المخربين ، أمسكوا بالولد جيداً كي لا يهرب ، إنهم ملاعين وأشقياء .

ومضى الضابط في المقدمة ، ووراءه عدد من الجنود يحيطون بالولد ، إلى أن وصلوا إلى بيته ، فأشار لهم .

ـ هذا بيتنا ،

خرطشوا أسلحتهم ، وحاصروا مدخل البيت ، كان الضابط يتصل باللاسلكي وكله تفاؤل وفخر ، ذلك أنه ربما يكون أول ضابط يمسك بخيط يوصل إلى خلايا التخريب .

خرج الأب ، وخرجت الأم ، اندفعت الأم لتأخذ ابنها من بين أيدي الجنود لكنهم شكلوا سداً في وجهها .

قال الضابط :

ـ نريد محمد ، لن نفلت إبنكم هذا قبل أن تسلمونا شقيقه محمد .

ابتسم الأب ودخل ، وبعد قليل خرج وهو يمسك بيد ابنه محمد .

تطلع الضابط إلى جنوده بذهول ، ثم صرخ في وجه الأب ،

ـ أين محمّد ؟

رد الأب ببطء .

ـ هذا هو ، ليس عندي غير هذين الولدين ، وهذا هو محمد ، إنه في الثالثة من عمره .

انسل الولد من بين أيدي الجنود واحتضن شقيقه محمد ، وهو يقول له :

ـ المرة الجاية بتيجي معنا تضربهم بالحجارة ، وما بتخاف ، طيب ؟!

وهز محمد رأسه ، وهو يردد ،

ـ بآجي معكم ، وبنضربهم بالحجاره .

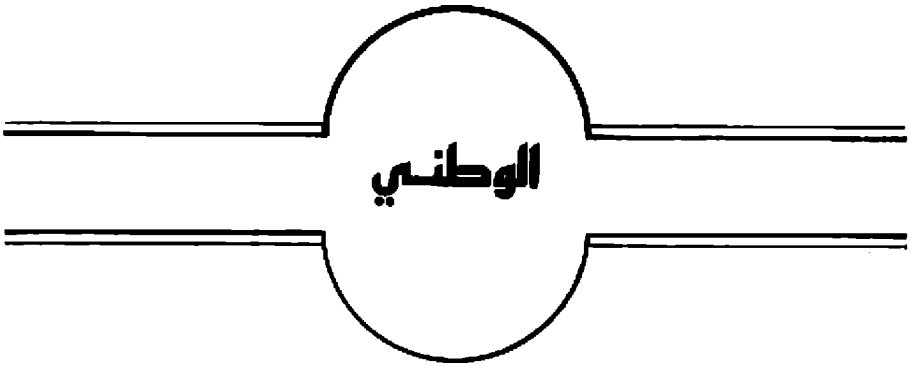
الوطني

اللحام أبو عبد الله يسعى منذ الصباح الباكر للالتقاء بأحد أعضاء اللجنة في المخيم . أبو عبد الله عنده ما يقوله ، مساء جاءه شاب قصير القامة ، يبدو وكأنه ما زال في المرحلة الثانوية ، لكن إذا دققت النظر فإنه يبدو وكأنه في الخامسة والعشرين .

أبو عبد الله لحام منذ أيام البلاد . يعني قبل الخروج عام 48 .

عاش أبو عبد الله مع زوجته وأولاده في المخيم ـ مخيم بلاطة ـ منذ أيام الخيم ، منذ كان أولاده قطاطيم لحم .

لكن أولاده كبروا وصاروا كما يقول : دكاترة ، ومهندسين ، وأساتذة . والبنات تزوجن وأنجبن أولاداً وبناتاً .

أبو عبد الله يقول : خرجت من البلاد ، والطيارات فوق رؤوسنا ، والرشاشات تطاردنا كنا أنا وزوجتي وثلاثة أولاد وبنتاً ، اليوم تكاثرنا حتى صرنا أكثر من عشرين إنساناً . أبو عبد الله لحام ، منذ أيام البلاد ، لكن بعد الخروج توقف عن التجارة باللحم ، لأن الناس ما كانوا يجدون الخبز الحاف ، فكيف يسعون لشراء اللحمة ؟ ومن أين لهم المال ؟

قال الشاب القصير : وهو يمد يده ،

ـ يا عم أبو عبد الله ، علمت أنك تسعى للالتقاء بأحد أعضاء اللجنة في المخيم .

ـ نعم ، نعم ، عندي ما أقوله .

ـ أنا يا عم من اللجنة الشعبية للمخيم .

ـ أنت ؟

تساءل أبو عبد الله مستغرباً ،

ـ أتراني صغيراً يا عم ؟!

ـ أبداً ، لا ، لا والله . يقول المثل : الحجر اللي ما بيعجبك بيطبشك .

ـ حلو ، واليوم حجارتنا الزغيرة بتطبش روس الصهاينة وسيرتها ماليه الدنيا .

ـ أنا ما بعرفك يا إبني .

ـ لكن أنا بأعرفك، ياما اشتريت منك لحمة ، أنا كنت صغير . .

ـ الصغير بيكبر ، وما في حال بيدوم على حاله .

ـ عندك شيء يا عم ؟

ـ أيوه ، عندي . أنا بأشتغل لحام يا ابني . وواجبي أقدم للناس لحم كويس . اكتشفت أن اللحم اللي بيجينا من مزرعة شارون ، شارون اللي ذبح أهلنا في صبرا وشاتيلا شارون ببيعنا خرفان مزارع ، واحنا خروفنا البلدي أطيب وأدسم ، لأن بيرعى

من عشب آرضنا ، بعدين شو بيعرفنا إيش شارون بيحط في الخواريف ؟ ها . . . . ؟

.إحنا اللحامين في المخيم تشاورنا وقررنا ما نقدم للناس إلا الخروف الوطني ، خروفنا ، وكل خرفان المزارع ما نقبلهاش ، بعدين بدي اسألك ، ليش شارون ، الجنرال شارون ، بيذبح الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا ، وقبل صبرا وشاتيلا ، وحتى اليوم ، ومع ذلك مصر أنه يبيعنا خرفان من مزرعته ؟ بحبنا تصير صحتنا كويسة ؟

ـ ما بأعتقد .

ـ إذن إيش ؟ .

ـ مصلحته يبيع ويشتري .

ـ تمام . إحنا لازم انخسره . مش لازم نشتري منه .

ـ هذا صحيح يا عم أبو عبد الله ،

ـ إذا الأميركان بيجروا تجارب على الأفارقة والهنود الحمر ، ومش عارف مين ، وبينشروا الايدز ، الله يكفينا شره ـ شو بيعرفنا إيش شارون وجماعته بيحطو لنا في خرفانهم ، بعدين ، يا ابني ، ما بتذكر شو عملوا في طالبات المدارس عندنا ، مش حطوا دواء في المي منشان يبطلن يحبلن ؟ بصراحة أنا باقبل أبيع وأشتري وأربح ، بس مش ممكن أربح على حساب أهل مخيمي ، وناسي وأهلي .

الولادة

مستشفى الخليل .

الليلة ولد خمسون ولداً فلسطينياً ذكراً . سهر الأطباء والممرضون والممرضات حتى الصباح . ساد السكون والصمت ساعات ، ولكن الضحك تفجر ودوى مع الفجر .

أحد الأطباء ابتسم لممرضة سمراء في عينيها نعاس ، وتساءل ؟

ـ الفلسطينيات عجيبات ، إنهن يحبلن بلا توقف ، تتزوج الفلسطينية وتقول لها مرحبا ، فإذا بها تحبل .

وضحك الطبيب محمد ، وهو يعلق .

ـ إذن لا تقول لإحداهن « مرحبا » .

ـ إلا بعد إحضار المأذون .

دارت الممرضة ابتسامتها وهي تتشاغل ، تساءل أحد الأطباء بجدية :

ـ ما تفسيرك للذي جرى الليلة ؟ ما تفسيرك لإنجاب خمسين امرأة خمسين طفلاً ذكراً .

ـ قرأت مرة أن النساء في الحرب العالمية الثانية ولدت ذكوراً أكثر من الإناث ، وخاصة في اليابان بعد القنبلة الذرية التي أُلقيت على هيروشيما ونكازاكي .

ـ يعني نحن نواجه الذرة الصهيونية .

ـ أنت ترى يا دكتور أنهم يحصدوننا حصداً . أنظر كم جريحاً عندنا في المستشفى لقد قدمنا في ثلاثة أشهر مئات الشهداء والجرحى . الحياة تدافع عن نفسها يا دكتور .

استأذن أحد الممرضين ،

ـ أنا تعبت كثيراً ، يجب أن أنام قليلاً ، لا ندري ماذا سيحدث اليوم ، مستوطنو كيريات أربع مسعورون ، والجنود مسعورون ، أتوقع اشتباكات كبيرة اليوم ، لذا يجب أن أنام كي أكون مستعداً للعمل وأنا صاح .

قال أحد الأطباء :

ـ يعطيك العافية ، أنت واللّه تعبت كثيراً ،

ـ كلنا نقوم بواجبنا يا دكتور ، حتى ما هو أقل من واجبنا .

ـ بالمناسبة ، ألن تتزوج ؟ أما زلت مصراً على عدم الزواج ، أو . . .

ـ لا ، لن أوجل ، سأتزوج ، وسأسمي ابني الأول : أبو حجر ،

ـ وإذا رزقت ببنت ؟

ـ سأسميها حجرية .

دخلت الممرضة السمراء ، وهي تحمل بين يديها قفة مليئة بالحجارة ، نظر إليها الطبيبان ليريا ما تحمل وما تفعل ، أخذت تدخل إلى غرف النسوة الوالدات ، واللواتي بعضهن ينمن ، وبعضهن مستيقظات ينظرن إلى أطفالهن بصمت .

أخذت الممرضة تضع حجراً في سرير كل طفل . رأت دماً على أحد الحجارة ، وضعت الحجر قرب رأس أحد الأطفال ، قالت :

ـ هذا عليه دم فلسطيني ، تذكر عندما تكبر ، لا تنس ، لا تنسوا كلكم ،

كانت تتكلم كأنها تصلي .

الطبيبان ينظران إليها ، وهي ذاهلة عنهما .

ـ هذا دم عبد ربه ، ربما يكون دمه ، حتماً هو دمه ، دم أخي عبد ربه ، الذي أصابوه أمس . نحن أربع أخوات ، وهو أخونا الوحيد ، وهو في التاسعة من عمره . .

سأل الطبيب زميله :

ـ أتعرف من هو ؟

ـ لا .

ـ إنه الولد الذي استشهد بين أيدينا أمس .

ونظر الطبيب ذاهلاً إلى الممرضة التي واصلت توزيع الحجارة ودموعها تسيل ، بينما البكاء ، بكاء الصغار ، الذي يعلن الحياة يضج في الغرف ، ويفيض عبر الممرات ، والنوافذ ويملأ الصباح .

ISRAEL
NO
P.L.O

تمشي العجوز متثاقلة ، وهي قلما مشت في السنوات الأخيرة ، أولادها نقلوها إلى نابلس مرات كثيرة ليراها الأطباء ويقولوا كلمتهم في آلام رجليها . أخذت أدوية كثيرة لكنها لم تستفد ، وحالها لم يتغير .

مرات كثيرة رددت :

ـ زهقت من الدنيا ، تعبت من الحياة . ما شفناش غير الهموم والعذاب ، والموت والطخ . والرحيل ، حتى الأيام الحلوة قبل ما ييجوا اليهود انسيناها من كثرة البلاوي اللي شفناها .

لكن الناس هبوا ، والجنود هُجموا ، والحجارة أمطرت على رؤوس الجنود المدججين بالأسلحة والخوذات والعصي .

والعجوز رأت بعض النسوة يقدمن الحجارة للأولاد والبنات ، فأخذت تجمع الحجارة المتناثرة قربها ، أمام البيت ، وتقدمها للأولاد ، وتناديهم أن يأخذوها ، وتزحف أو تحبو على رجليها ويديها . ومرة وراء مرة ، نهضت ، وزغردت للأولاد . وعندما هرب الجنود ، وأعلن الأولاد والبنات أنهم أحرار . سألتهم :

ـ ماذا تقولون بالإنكليزي ؟ فقالوا لها .

وظلت تـردد العبـارة معهم حتى تعلمتهـا ، وفهمتهـا ، وضحكت من نفسها وهي ترددها معهم في البداية ، وتهز يدها مثلهم في الهواء ، رسم علامة النصر ، لكنها فيما بعد نسيت أن تضحك من نفسها ، وضحكت من الجنود الذين هربوا أمام الأولاد والبنات . وجمعت الحجارة وقدمت البصل للأولاد والبنات كي لا تدوخهم أو تؤذيهم قنابل الغاز .

واكتشفت العجوز ، خالتك أم أحمد ، أنها مشت وكادت تركض مع الأولاد وراء الجنود ، وهتفت :

P.L.O

ISRAEL NO

واقترب منها صحفي وصورها للتلفزيون ، وسألها ،

ـ ماذا تقولين ؟

وترجم واحد من الأولاد لها ، والمراسل الصحفي حكى معها كلمات بالعربية . وهي سألته ؟

ـ وين إتعلمت عربي ؟

ـ هون ، صار لي ثلاثة أشهر ، حضرت من أول الانتفاضة ، وزمان جيت هون ، وإحضرت انتفاضات . بس مش مثل هيك ، كانت أزغر ، وبعرف الفلسطينيين اللي بره ، في الخارج .

وقرب رأسه منها ، وهمس لها .

ـ بعرف الفدائيين وقياداتهم .

والعجوز ابتسمت لأن الصحفي حكى لها سراً ، ولأنها كانت تمشي ، وهو لا يعرف أنها لم تكن تمشي .

ـ أنا أريد أن أسألك ، هل تعرفين القراءة ؟

ـ لا ،

ـ ليش ؟

ـ أيام الأتراك ما تعلمناش ، وكمان أيام الإنكليز ، وبس إجو هدول ـ وأشارت باتجاه الجنود الصهاينة الذي كانوا بعيدين ـ كنت كبرت وتزوجت وبعدين رحلنا من فلسطين ، وولدت وربيت البنات والأولاد ،

ـ بتعرفي شو يعني معنى ،

P.L.O

ISRAEL NO

ـ آه باعرف ، يعني تعيش فلسطين والمنظمة، واسرائيل ، يقصف عمرها . وضحك الصحفي ، وصور العجوز ، وسألها:

ـ شو بتعرفي كمان؟

ـ باعرف انها هذي بلادنا .

ثم مشت وهي تردد (مشت ببطء ولكن بحزم وثقة) .

ـ آ . هذي بلادنا . قول لكل الدنيا .

وتطلعت في عين الكاميرا ، كأنها تتطلع في عيون العالم .

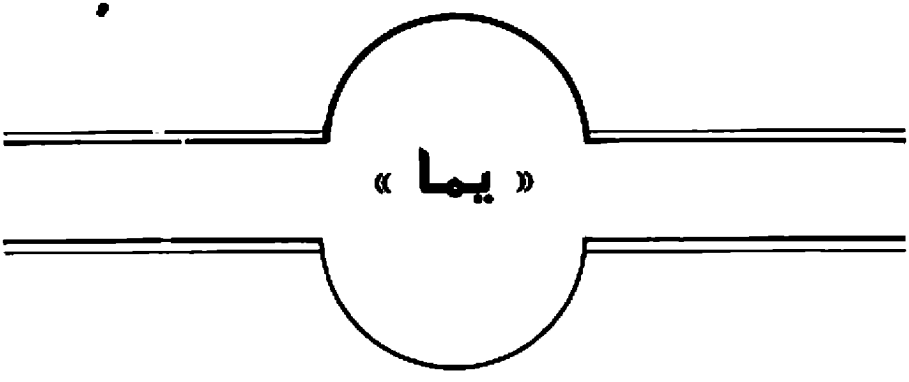

« يما »

وأنت تقف في مخيم الشاطىء ، في أي زقاق أو شارع ، وحين تراها ، ستسمع نداءات كثير من الشباب والشابات ، والأولاد والبنات ، « يما » إنها خالتك أم محمود .

نساء كثيرات يقبلن يدها حين يلتقينها ، وهي تسحب يدها بسرعة ، وهي تردد :

ـ استغفر الله يا بنتي .

النسوة يفعلن ذلك ، يعطينها كل هذا الاحترام لأنها الداية ، التي جعلت ولادتهن مريحة ، ولأنها استقبلت أبناءهن وبناتهن على راحتيها .

والشباب والشابات والأولاد والبنات ينادونها : يما ، لأنها استقبلتهم على راحتيها ، الذين ينادونها : خالتي ، هم الذين لم تولد أمهاتهم ، وهي تميز بينهم من ندائهم لها : يما . أو ، يا خالتي . وفعلاً : كيف ستعرف خالتك أم محمود ، كل الأولاد والصبايا الذين استقبلتهم راحتاها ؟ إنهم كثيرون ، وها هم وراء جنود الاحتلال ، ويلاحقونهن بالحجارة .

خالتك أم محمود حزنت كثيراً في أول عمرها ، أول سنوات

الزواج ، لأن إرادة الله شاءت أن لا تحبل ولا تلد .

أخذت أم محمود تساعد النسوة اللواتي يلدن . يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر ، وسنة بعد سنة صارت خالتك أم محمود داية . وصار لها أولاد كثيرون ، وتعلمت فك ـ الحروف ، بعد أن راحت إلى المدرسة مساء ومحت الأمية . وأكثر من ذلك تعلمت كيف تعطي الإبرة ، وترددت على عيادة المخيم ، واستشارت الطبيب الذي ساعدها وعلمها الكثير .

خالتك أم محمود هذه الأيام فرحانة جداً ، تتباهى كثيراً بأولادها ، تقول :

ـ بإيدي هدول استقبلتهم . كنت أقول الهم أول ما يولدوا : إكبروا وصيروا شباب وبنات ورجعوا بلادكم .

قبل أيام نشرت صحف عربية وأجنبية صورة لسيدة فلسطينية ، قالت إنها لسيدة من أحد مخيمات غزة ، والصورة للسيدة وهي حاملة سطل مليان حجار ، ووجهها كله حزم ، وملامحها كلها عزم وإصرار . هذي خالتكم أم محمود ، وهذا السطل اللي كانت زمان تسخن فيه الماء للوالدات وتحميم الأطفال الذين يولدون ..

أمس اشتبك الشباب والصبايا والأولاد والبنات مع جنود الاحتلال ، فزغردت خالتك أم محمود وملأت سطلها حجارة ، وركضت وهي تنقل الحجارة .

حذرها أحد الرجال :

ـ عودي يا أم محمود ، عودي ، الصهاينة بيطلقوا رصاص

حقيقي .

لم تلتفت أم محمود لترد على الرجل ، لكنها رددت وكأنها تكلم نفسها فقط .

ـ ارجع ، ارجع واترك أولادي ، كيف اتركهم ، هدول قلبي وروحي وحياتي ، كل مرة الها ولد ، أو بنت ، وأنا كلهم اولادي . . أنا جبتكم لهاليوم ، لهاليوم يا أحبابي .

لم تندهش أم محمود ، لأنهم جميعاً ينادونها « يما » ولأن واحداً ، أو واحدة ، لم يعد أو تعد ، تناديها ، خالتي .

وامتزجت الأصوات : الحقوهم يما ، اطردوهم برة ،

و . . . . ديري بالك « يما ».

الزيتون

توغل الجنود بين أشجار الزيتون وأخذوا يرتاحون بالتخفف من قنابلهم ، وبنادقهم ومسدساتهم ، وأجهزة اتصالهم ، وقاذفات قنابل الغاز ، وخوذهم الفولاذية ، ودروعهم الواقية .

تطلعوا حواليهم ، تمدد بعضهم وأخذ يرقب الطرق الترابية بين الحقول . سحب أحدهم بندقيته الرشاشة وأطلق ، فهبوا بسرعة ، وهم يسألون :

ـ أين هم ، أين المخربون ؟

لكن الجندي ضحك ،

ـ لا يوجد أحد منهم هنا ، إنني فقط أطلقت على أشجار الزيتون ،

ـ لماذا ؟

ـ لأني لا أحبها ،

ثم صرخ بعصبية :

ـ أنا لا أحب أشجار الزيتون ، لا أحب شيئاً ،

وأطلق الرصاص بغزارة على الأغصان ، فتساقطت الأوراق

الصغيرة ، ولكن الأشجار ظلت ثابتة في الأرض . أطلق جندي آخر ، وهو يردد :

إنها مثلهم عدوة .

ضحك أحد الضباط وهو يطلق من مسدسه ، ويردد :

ـ حتى لا يجدوا غصناً يرفعونه ، أليس كذلك ؟

رأوا ولداً يتقافز بين الأشجار ، فصرخ الضابط .

ـ الحقوه . مخرب صغير . الحقوه .

ركض الجنود خلفه وهم يطلقون الرصاص . أمسكوا به . سألوه وهم يركلونه على رأسه وساقيه وذراعيه .

ـ ماذا كنت تفعل ؟ ها ، ماذا تريد ، لماذا أنت هنا ؟

ـ هذا حقلنا .

قال الولد .

ـ أحضرت زوادة لأبي ، ولكنني لم أجده .

ـ ألا تحمل حجارة ، ألست منهم ؟

ولم يجب الولد ، أخذ الدم ينزف من فمه ، من رأسه ، من أذنيه .

قال الضابط وهو يضحك :

ـ إنه ليس عسكرياً ، لذا لن نطلق عليه الرصاص ، أقترح أن نشنقه ، هيا .

أشنقوه على شجرة زيتون عالية .

عندما يأتون ويجدونه سيعرفون ماذا يعني هذا ، وغرق في الضحك ،

ملاحظة : في صباح اليوم التالي ، وجد بعض أهالي القدس « جثة » الطفل تتدلى على إحدى أشجار الزيتون .

نشر الخبر في الصحف ، وتناقلته بعض محطات التلفزيون ووكالات الأنباء .

الشهيد والنار

« يعبد » القرية الفلسطينية التي شهدت بداية ثورة فلسطين الكبرى ، عندما صعد الشيخ عز الدين القسام ورجاله إلى أحراشها واشتبكوا مع الإنكليز .

« يعبد » التي استشهد بين أشجارها الشيخ عز الدين وعدد من رجاله وهم يقاتلون جنود الاحتلال الإنكليزي .

« يعبد » التي نفذ ، بعض الثوار من الطوق الذي ضربته قوات الاحتلال البريطاني حولها ، الذي ضربته حول الشيخ عز الدين ورجاله ، والذين أشعلوا الثورة الكبرى مع بداية 36، « يعبد » تصور هذه الأيام لتقاتل من جديد بالحجارة . ومكبرات الصوت تعلن أنها حرة .

كان يوسف توفيق الكيلاني يسير ، عندما أمسك به جنود الاحتلال ، وانهالوا عليه ضرباً ، وأمروه أن ينظف الشارع من العجلات التي تحترق ، ومن الحجارة .

صرخ يوسف توفيق الكَيْلاني ،

ـ شوارعنا كانت نظيفة قبل احتلالكم لبلدنا .

وانهالوا عليه ضرباً ، حاول أن يحمي رأسه ، لكنهم ضربوه على رأسه وهم يصرخون ، ويتقافزون حواليه ، وبعضهم يغرق في الضحك ، لأن تدفق الدم من رأس ووجه الفلسطيني يدخل البهجة إلى نفوسهم . لكن يوسف توفيق الكيلاني لم يطع أوامرهم .

هم يصرخون طالبين إليه أن ينظف الشارع من العجلات التي تحترق ، وهو يردد :

ـ أخون وطني لو فعلت .

ـ سننظف الشارع .

ـ سننظف شوارعنا منكم .

وترنح جسد يوسف ، ودارت حواليه البيوت والأشجار ، وتذكر صيحة عز الدين التي أطلقها في رجاله المجاهدين ، عندما حاصرتهم قوات الاحتلال البريطاني : موتوا شهداء ،

سأستشهد ، ولن أطفىء النار في شوارع يعبد .

ملاحظة : في اليوم التالي قالت سلطات الاحتلال الصهيوني بأن يوسف توفيق الكيلاني مات بحادث سير .

ورغم البلاغ كانت النيران تتأجج في الشوارع ، وانقض أبناء يعبد على جنود الاحتلال بالحجارة ، بينما كانت النسوة يزغردن لشهيد فلسطين ، شهيد يعبد : يوسف توفيق الكيلاني .

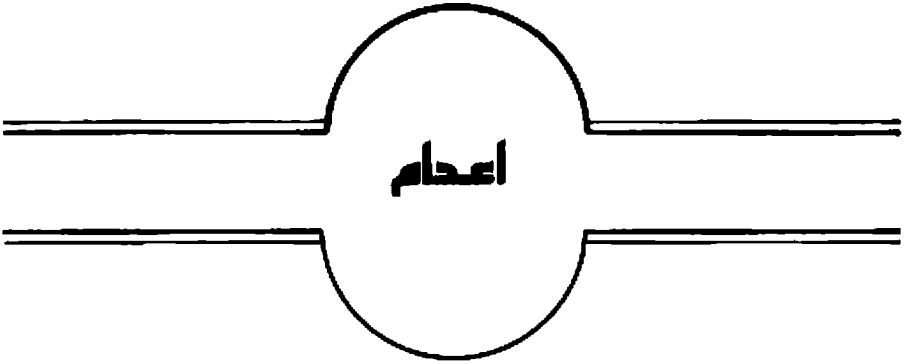
اعدام

دقوا باب بيته ، رد عليهم من وراء الباب سائلاً :

ـ من أنتم ؟

قال له أحدهم .

ـ افتح .

ـ لن أفتح .

ـ نحن من طرف اللجنة الشعبية .

ـ لا تهمني لجنتكم . ثم من قرركم لجنة .

ـ ارتفع صوت أبو أحمد (وهو ليس اسمه الحقيقي) .

ـ قباطية قرية وطنية . لن نسمح بتلويث اسمها وشرفها ، شعبنا يقاتل بالحجارة . . .

ـ حجارتكم لا تهمني .

ـ ننصحك .

ـ لا أخافكم . اليهود راح يمسكوكم مثل العصافير .

ـ أنت تلعب بدمك ، غيرك انتصح وتراجع ، هناك فرصة ،

فكر في سمعة أولادك وأسرتك .

ـ قلت لكم لن أتراجع ، ولن أفتح لكم ، وهأنذا قد عرفت أصواتكم ، وسأبلغ عنكم أيضاً ، التظاهرات تصاعدت في قباطية ، والناس جميعاً خرجوا من بيوتهم ولاحقوا الجنود الصهاينة ، وأعلنت القرية أنها حرة ، وأنها أنهت الاحتلال .

عندما رأى محمد العابد الناس يتجهون صوب بيته ، وهم يرفعون العلم الفلسطيني ، أخذ يطلق النار عليهم ، من الرشاش ، الذي أعطاه إياه ضابط في « الشين بيت » .

نادوه بمكبر للصوت أن يستسلم ، ولكنه رفض ، قالوا له أن يلقي السلاح ويقدم نفسه لمحاكمة شعبية عادلة لكنه واصل إطلاق النار .

عندما رأى الناس أن طفلاً أصيب وآخر استشهد ، قرروا الهجوم على البيت وإحراقه بمن فيه . ولكن أعضاء اللجنة الشعبية طلبوا إليهم أن يتوقفوا ، ويبتعدوا من حول البيت ، فامتثل الناس .

نادى أحد أعضاء اللجنة الشعبية زوجة محمد العابد ، وطلب إليها الخروج مع أبنائها قبل أن تفقد حياتها هي والأولاد .

خرجت الزوجة والأولاد ، فنقلهم الناس بعيداً ، وطمأنوهم على حياتهم .

ظل الشباب يشاغلون محمد العابد حتى نفذت ذخيرة رشاشه ، ثم اقتحموا عليه البيت ، واقتادوه بعيداً .

قال له أحدهم :

ـ ظننت أن الذين تعاملت معهم سينقذونك أليس كذلك ؟ سلاح الخيانة ما بينفع ، حجارة بلادنا هي اللي بتبقى .

قالت امرأة عجوز :

ـ ما بيظل في الأرض غير حجارها يا خاين .

ـ شو راح تعملوا بزوجتي وولادي ؟

قال له عضو اللجنة الشعبية ،

ـ هذول مش ولادك ، هذول ولاد قباطية ، وولاد قباطية ولاد فلسطين .

ـ وأنا ، شو بدكم تعمّلوا في ؟

وكانت اللجنة الشعبية قد اتخذت قرارها بإعدامه . فالذي يطلق النار على أهل قباطية لا بد أن يعدم .

قال له عضو اللجنة الشعبية :

ـ المستوطنون يطلقون النار على أهلنا ، هم وجنود الاحتلال ، لقد نصحناك مراراً وتكراراً ، ولكنك ارتحت لدور الخائن . . .

وصبيحة اليوم التالي كانت جثته تتدلى عند برج الكهرباء ، وكان الجنود الصهاينة يتطلعون ولا يستطيعون فعل شيء .

وأهل قباطية لم يدهشوا عندما رأوا أبناء محمد العابد يحملون الحجارة ويهجمون مع أولاد وبنات القرية على الجنود الذين كانوا يطلقون النار من رشاشاتهم .

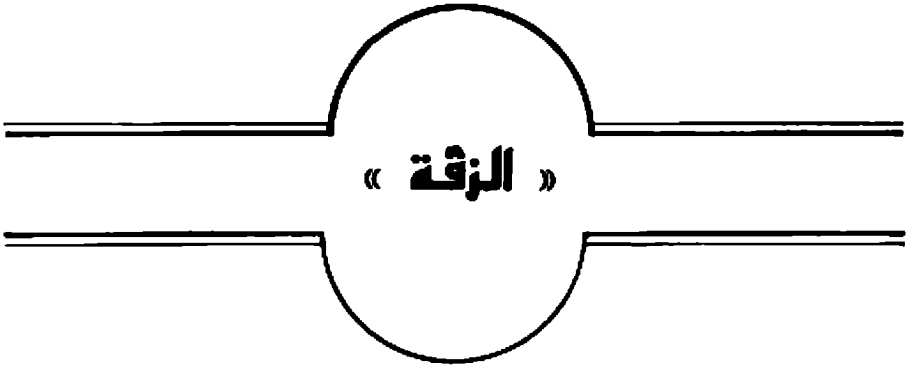
« الزقة »

ـ احلف أنك تخلص لشعبك ، وأنك ما تعود تتعامل مع « الشين بيت » وسلطات الاحتلال .

ـ والله العظيم غير أكون مخلص لشعبي ، وما أعود أتعامل مع « الشين بيت » وسلطات و . . كل الخونة .

كانوا في المسجد ، وهو بينهم ، سأله أحدهم :

ـ خايف ؟

قال :

ـ لا . مش خايف . أنا لما حبسوني قبل ثلاث سنين خفت . عذبوني كثير ، ما اتحملتش إعترفت ، وبعدين شغلوني معهم . أنا مش عارف كيف إعترفت إني منظم ، وإني . . .

ـ مش مهم ، تخافش . زمن الخوف راح . والمهم إنك تعيش مع شعبك بشرف .

خرجوا من المسجد ، فرآهم أهل القرية ، اندفع الشباب وأحاطوا به وحملوه على أكتافهم انفجر بالبكاء ، وقال :

ـ أنا . . أنا وطني يا ناس ، أنا بأحبش أعداء وطنا ،

المحتلين بلادنا ، بس أنا خفت يومها ، عذبوني كثير وضعفت و . . .

صاح أحد الشباب :

ـ ناولوه العلم ، علم فلسطين .

وقال واحد من أعضاء اللجنة الشعبية من قريته (. . . .)

ـ زفوه . دوروا فيه بشوارع قريتنا وزفوه . إحنا ما نحبش حد يخون شعبه ، ولا بنحب حد يضعف قدامهم ويصير ذليل وعميل لهم .

وانطلقت الزغاريد ، ولوح بالعلم ، وسالت دموعه وهم يرقصونه على أكتافهم ، وشعر أنه قوي ، كبير ، أنه بأيد كثيرة ، وود لو يقابل أولئك الذين عذبوه وأهانوه ودفعوه إلى خيانة أهله . وصرخ :

ـ هاتوا حجر ، أعطوني حجر ، زمان ما حملتش حجر .

وناولته أيد كثيرة حجارة كثيرة ، ولوح بالعلم بيد ، وبحجر باليد الأخرى ، وارتفع رأسه عالياً ، وأشار لهم أن يتقدموا إلى مدخل القرية حيث جنود الاحتلال .

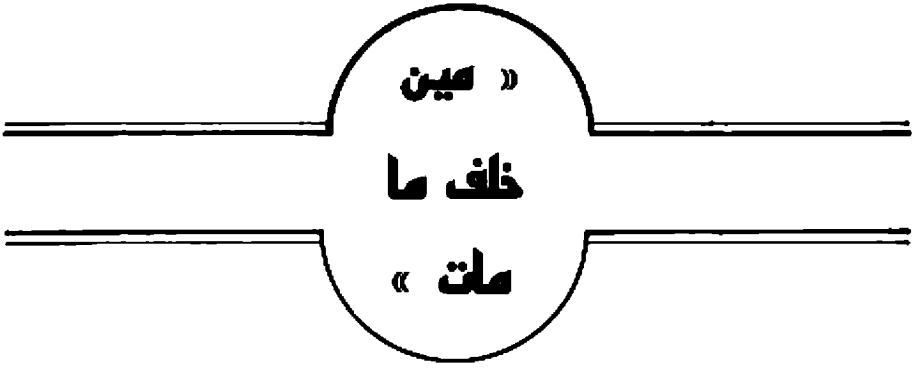

« مين
خلف ما
مات »

وقفت سيارة مليئة بالتموين عند مدخل المخيم ، ولكن الشباب المرابطين وراء الحواجز قالوا للرجل الذي هبط منها وطلب إدخالها .

ـ ما بتقدر ، لازم موافقة أبو سعيد ،

سألهم الرجل :

ـ ما بتعرفوني . أنا عمكم أبو يوسف ، باشتغل في (الأنروا) في الوكالة ، في الإغاثة ، وهذا تموين للمخيم لمخيمنا .

ـ على عينا وراسنا يا عم أبو يوسف ، بس النظام نظام ، هيك أوامر اللجنة الشعبية

ـ وين بلاقي اللجنة الشعبية ؟

ضحك أحد الشباب .

ـ بدك ، اللجنة الشعبية كلها يا عم أبو يوسف ، معقول هالحكي ؟!

ـ طيب وين بلاقي ايش اسمه . . . بين قلتم اسمه قبل شوي . . .

ـ أبو سعيد

ـ أبو سعيد ؟

ـ هناك ، عند زاوية الشارع .

ـ كيف بدي أعرفه .

ـ اسأل أي حد من أهل المخيم وين أبو سعيد بيدلك .

ـ يعني ما بيصير تدخل سيارة التموين بدون . . .

ـ بدون ورقة عليها إمضاء أبو سعيد .

ـ ـ أمرنا لله .

ومشى العم أبو يوسف على الرصيف ، مبتعداً عن أكوام الحجارة ، وعجلات الكاوتشوك التي كانت تتأجج فيها النيران .

رأى شاباً في قرابة العشرين من عمره يجلس لصق حائط أحد البيوت ، اقترب منه .

ـ وين يا شاب ، بأجد أبو سعيد ؟

ـ ليش يا عم أبو يوسف ؟

ـ إبتعرفني ؟

ـ طبعاً بأعرفك ، من واحنا زغار وانت توزع طحين الوكالة ،

ـ كويس ، هذا كويس ، بس وين بالاقي أبو سعيد ؟

ـ أبو سعيد قدامك يا عم أبو يوسف ،

ـ أنت ؟

ـ أنا ، مستزغرني ؟

ـ لا ، أعوذ بالله .

وداري أبو يوسف ابتسامته . وهو يتساءل في داخله وهو يفكر « هل يكون هذا من اللجنة الشعبية في المخيم » .

ونبهه أبو سعيد من استغراقه .

ـ ليش بدك اياني يا عم ؟

ـ حتى تعطيني ورقة عليها توقيعك لإدخال سيارة التموين الواقفة هناك عند مدخل المخيم .

أخرج أبو سعيد ورقة صغيرة من جيبه وقصها بعد أن كتب : يسمح لسيارة التموين بالدخول ، أمسك أبو يوسف بالورقة ، وسأل الشاب ؟

ـ انت ابن مين ، أنا ما باعرفك ؟

ـ أنا يا عم أبو يوسف ابن الشهيد . . .

وذكر له اسم والده ، فدهش الرجل .

ـ أبوك ، بأعرفه ، الشهيد (. . . .) استشهد بعد الاحتلال بكام شهر . انت كنت زغير ، يا دوبك ثلاث سنين كان عمرك .

وردد أبو يوسف :

ـ دنيا ، دنيا . . . فعلاً مين خلف ما مات . . .

فعلاً أبوك ما مات يا ابني . . .

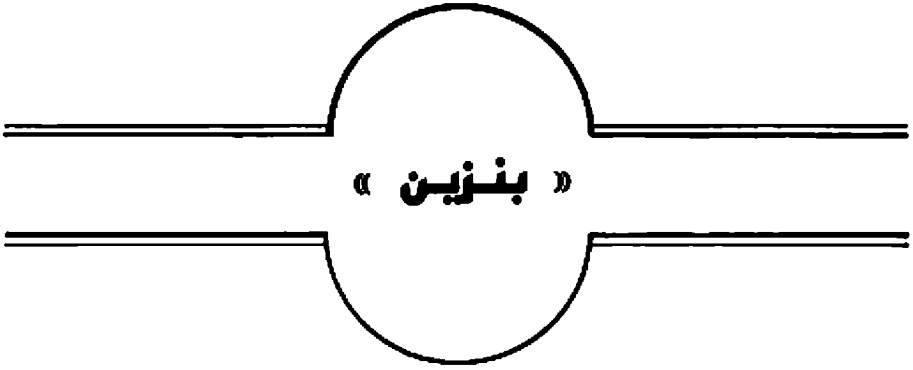
« بنـزيـن »

بعد أن قطع البنزين عن مدينة غزة ومخيماتها ، وعن بقية المدن والقرى الفلسطينية المحتلة في الضفة الغربية ، ذهبت بعثة تلفزيونية تابعة « لتلفزيون الاحتلال » . أخذوا يجرون المقابلات ليستطلعوا رأي الناس وموقفهم من قطع البنزين .

كان المصدر التلفزيوني والمذيع وبعض العاملين معهم يقفون في شارع عمر المختار بغزة ، عندما رأوا سيارة ركاب تقف على مقربة منهم . حاول المذيع أن يبدو لطيفاً ،

سأل السائق :

ـ هل ممكن أن نحكي معك ؟

ـ احكي .

ـ وأن نصورك ، معلش .

ـ معلش ، صور .

ـ ما رأيك في قرار قطع البنزين عنكم ؟

ـ ما بيهمنا .

ـ ليش ؟

ـ لأنهم جماعتكم ، بدهم ايانا نركع ومش رايحين نركع ، هذي أساليب ساذجة ، معقول نتخلى عن حقوقنا منشان شوية بنزين .

ـ أيوه .

ـ وأيضاً مش رايحين نروح نشتري بنزين من المستوطنات اللي زرعتوها على أرضنا .

ـ أيوه ، إذا ما عادش في بنزين شو راح تشتغل ؟

ـ أنا كنت أشتغل شرطي ،

ـ شرطي ؟

ـ أيوه ، واستقلت لأنها وطني مش أقل من وطنية أهل بلدي ، واليوم أنا باشتغل سائق حتى أساعد الناس يوصلوا . . .

ـ وبعدين ؟

ـ ممكن أشتغل أي شيء ، أنا باعرف أخبز ، ممكن أشتغل فران ، حلاق . . .

ـ ابتعرف تحلق ؟

ـ آ . . . لازم نحلق الكم ، ها . . . ها . . . .

وأخذ السائق يضحك والمصور يتطلع بصمت ، والمصور يصور ، أما العاملون فلم يفهموا لماذا يضحك السائق الفلسطيني لأنهم لا يعرفون العربية .

أخذوا يتحدثون مع بعضهم بالإنكليزية ، فضحك السائق ، وقال :

ـ هل أترجم بينكم ؟ يبدو أنكم ما بتعرفوش العبرية ،

لم يرد المذيع ، فأضاف السائق :

ـ اسمع : قل لجماعتكم ، قل لبيريز وشامير ورابين ، ما فيش فايدة من أساليبهم ، حقوقنا بنتنازلش عنها ، بنقاتل بالحجار ، ما فيش بنزين بنمشي على رجلينا ، كمان قل لجماعتكم أنه شولتز والأميركان مش راح ينقذوهم ، أيوه . . . تنساش ، كل الكلام قوله ، مش تحذفه منه ،

وعندما شغل السيارة ، وبدأت تتحرك ببطء ، رفع صوته من جديد :

ـ البنزين هو دمنا ، بدمنا وطنا يمشي ، مش ببنزينكم . . . باي . . . باي . . . باي باي يا . . . خواجة .

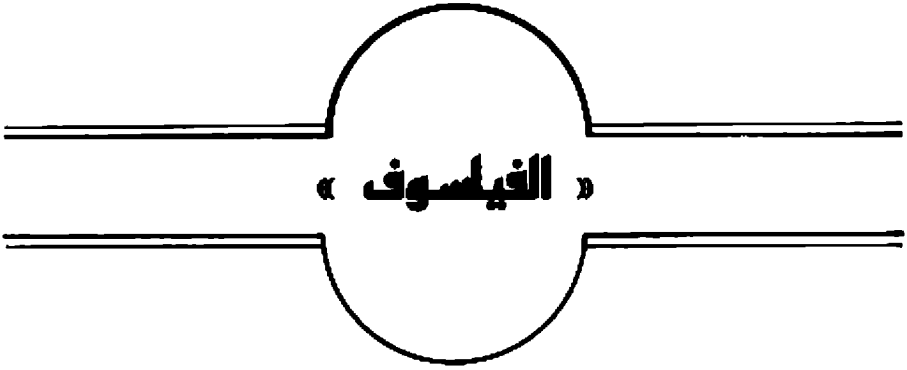
« الفيلسوف »

أيام زمان ، مخيمات أريحا ، عقبة جبر ، عين السلطان النويعمة ، قاتلت ضد حلف بغداد ، وأدت دوراً كبيراً في إسقاطه .

أيام زمان هتف الناس ضد زيارة الجنرال تمبلر .

كانت مخيمات أريحا الثلاثة مشتعلة . ولكن المخيمات فرغت من ألوف الناس في حزيران 67 .

لقد فوجيء الناس بالهزيمة ، فوجئوا بهرب الجيوش ، فوجئوا يوم جاءت الطائرات وأسقطت منشوراتها فوق رؤوسهم وأمرتهم بالرحيل عن الجسر وإلا . . .

فوجئوا وهم يرون طائرات العدو تغير على أريحا . على المعسكرات القريبة ، على الطرق على الجنود الهاربين ، ولم تكن هناك مقاومة ، لأن الناس لم يكونوا مسلحين .

بقي قليل من الناس ، فجاءت قوات الاحتلال ونقلت من بقي في مخيمي النويعمة وعين السلطان إلى مخيم عقبة جبر .

ثم هدمت قوات الاحتلال بيوت مخيم النويعمة . وأفرغت

عين السلطان من العائلات القليلة وبالقوة .

وهكذا ، ففي مخيم عقبة جبر حوالي ثلاثة آلاف مواطن فلسطيني فقط ، هم من بقي من حوالي ستين ألف مواطن .

المقاهي التي كانت عند مدخل عقبة جبر أغلقت أبوابها ، باستثناء مقهى واحد . في هذا المقهى كان الرجال العجائز والكهول يلتقون ، يلعبون الورق وأحجار الضومنه ، ويدخنون ويتأملون .

العم أبو العز يدخن الأركيلة ، يحضرها معه ، ويشعل الفحمات ، ويتأمل . إنه لا يشارك اللاعبين اللعب ، لكنه يتبادل معهم الحديث أحياناً .

لأبي العز فلسفة في إشعال أركيلته ،

ـ يجب وضع نارين ، واحدة كبيرة وواحدة صغيرة ، ليش ؟ لأن الصغيرة بتسند الكبيرة وبتبقى النار مشتعلة .

أمس جاء أبو العز على غير عادته بدون أركيلته ، وقف أمام اللاعبين وقال :

ـ طول عمري باقول لكم النار الزغيرة بتسند الكبيرة ، صحيح ؟

قالوا بدهشة :

ـ صحيح .

ـ يا جماعة المخيمات فضيت ، أهلنا رحلوا .

مخيماتنا أيام زمان كانت بترفع الراس ، خابرين لما كان

« صوت العرب » يحكي عن أيام حلف بغداد .

قال أحد المتقدمين في السن .

ـ أيام راحت .

ـ لا ما راحتش . اليوم إجا دور الزغار . . . الزغار اللي ما كانوش على بالكم .

وارتفع صوت .

ـ آه يا فيلسوف يا أبو العز .

ـ عقبة جبر عمره ما كان يتأخر عن نداء الوطن .

ـ لكن الناس قلال .

ـ فعلنا بيصير كبير إذا تحركنا . بعدين كل المخيمات مولعة ، معقول مخيمنا ما بتجيب سيرته الإذاعات . معقول أريحا ومخيماتها تنتسى وهي اللي كانت حديث الدنيا لما طردنا « تمبلر » واتصدينا ل . . . ل . . . لحلف بغداد .

وتدفق أولاد وبنات صغار في الشارع ، وهم يهتفون ، فابتسم أبو العز ، وهو يقول :

ـ هيهم ، أيوه . . . هذول النارة الزغيرة اللي بتحفظ النار شاعلة . . . يلا يا جماعة قوموا . . . وصرخ في الولد الذي يعمل بالمقهى :

ـ لم الورق يا ولد ، لم حجار الضومنة ، يلا يا رجال ، بعدكم شباب رغم العمر . . . مش لازم نترك ولادنا وبناتنا وحدهم .

وتقدمت المظاهرة إلى الإسفلت الذي تسلكه السيارات بين أريحا والقدس . وكان منظر أبو العز وقد أمسك بيد أحد الصغار مثل نارتين واحدة كبيرة وواحدة صغيرة . . .

ونقلت الإذاعات أن اللاجئين في مخيم عقبة جبر ، قرب أريحا قد تظاهروا على طريق القدس ـ أريحا .

« الجواز و... التصريح »

منذ عام 67 لم يعد الحاج محمد عبد الفتاح إلى فلسطين .

غادرها مع الذين رحلوا شرقاً وعبروا نهر الأردن ، واستقر به المقام في مخيم البقعة .

وهناك عاش مع ألوف الناس في المخيم ، في الوحل ـ كما يقول ، لأن الأرض طينية ، والجو في الشتاء قاس .

لكن الفلسطينيين وكالعادة ، حسنوا سكنهم ، وزرعوا الأرض حول براكساتهم التي أنشأوها بعد أن تخلصوا من الخيام ، وصار مخيم البقعة غابة أشجار ومدارس وملاعب وحياة .

ولكن الحاج محمد عبد الفتاح ظل مثل الألوف غيره حزيناً موجوعاً . ويا طالما حلم بالعودة إلى قريتهم البعيدة قرب الخليل ، ليدفن في مقابر أهله بعد أن يموت .

لقد هاجر من قرية الدوايمة ، إلى الخليل ، ثم من الخليل إلى بيت لحم ، إلى مخيم الدهيشة ، ولأن الطقس بارد ولا يحتمل رحل مع بقية الأهل إلى أريحا حيث الدفء شتاء .

ها هو الحاج محمد عبد الفتاح يعود . ها هو ذا يعبر

الجسر . إنه يقف ويتطلع إلى أريحا ، يريد أن يركض إليها ركضاً .

لقد أدهشه كيف يتحدث الضابط الذي على رأسه التاج الملكي مع الضابط الصهيوني ، وعندما وصل منتصف الجسر مشياً على قدميه تطلع وراءه ، ثم تطلع أمامه ، كأنما يتأمل العنابطين اللذين يتبادلان الحديث بمودة وبطمأنينة وبصوت مرتفع .

هز الحاج محمد عبد الفتاح رأسه وهو يتمتم ،

ـ انهما سبب بلاوينا ،

وقلب جواز السفر وتصريح العبور الذي استخرجته له ابنته ، بين يديه ، وتأملهما ، نهره الضابط الذي على رأسه التاج الملكي .

ـ امش ، امش لا تتوقف ،

وأشار له الضابط الصهيوني ،

ـ اتحرك ، يلا ، امشي ، لا تتوقف ،

وقال الحاج لنفسه ،

ـ بيحكوا مثل بعض . يمكن من طول عشرتهم مع بعض ، الثنين بيصرخوا في ، بدهمش اياني، واحد بعطيني جواز ومعليهوش اسم فلسطين ، وواحد بعطيني تصريح حتى أدخل لبلدي زيارة ومعليهوش اسم فلسطين.

بعد أن فرغ الحاج محمد عبد الفتاح من الاجراءات ، بعد

أن انتظر أكثر من خمس ساعات تفتيش وبهدلة ، صعد إلى سيارة يسوقها ولد عربي من أريحا ، التصق الناس في السيارة بصمت . الولد الريحاوي قال كأنما يستدرجهم للحديث :

ـ الدنيا مولعة في المدن والمخيمات . لازم نوصل بدري قبل ما يصير منع التجول ، الجنود بيطخوا برصاص حقيقي ، والناس بيرجموهم بالحجار .

أريحا ليست بعيدة عن الجسر ، سبعة كيلومترات فقط ، ما إن دخن الحاج محمد عبد الفتاح سيكارته من علبة اللف حتى سمع صوت السائق :

ـ اوصلنا ، الحمد لله على السلامة . اللي منكم بده يواصل للقدس ، للخليل ، لغزة هناك السيارات ، بسرعة .

وسأله :

ـ لوين يا حاج ؟

ـ لعقبة جبر .

أوقف الولد الريحاوي له سيارة تاكسي . وقال للسائق :

ـ وصل الحاج لعقبة جبر .

الحاج وضع أغراضه في الصندوق الخلفي ، ثم توقف قليلاً ، وتطلع إلى الأبنية ، والشوارع والنخيل ، وأخذ على مهل يمزق جواز السفر وتصريح الزيارة . وقال لنفسه :

ـ لن أرحل . أي والله . . . لن أرحل ، اللي شفته بيكفيني ، وهون مع الناس بموت أو . . . بأعيش .

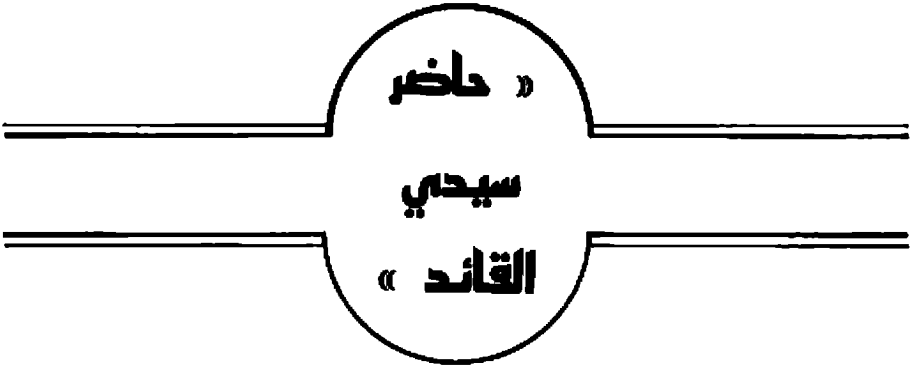

« حاضر

سيدي

القائد »

عندما دق جرس الباب ، تطلع سامي من النافذة ، لكنه لم ير جيداً ، ولم يستطع أن يميز ملامح الشخص الذي يقف عند الباب .

فتح الباب وخرج ، ورفع صوته سائلاً :

ـ مين ؟

جاءه صوت طفولي .

ـ افتح إذا سمحت .

عندما بلغ سامي الباب الخارجي رأى ولداً في حوالي الثانية عشرة من عمره تقريباً .

ـ أهلاً وسهلاً ، شو بدك يا شاطر ؟

ـ ابتسم الوالد الواقف عند البوابة في الضوء وقال :

ـ عندنا كم كلمة إذا سمحت .

ـ عندكم ، مين انتم ؟

ـ أنا وبقية الشباب .

ـ عفواً مش شايف حد معك .

ـ أصله ، احنا موزعين بين الشجر في البيارات . ومحضرين القنابل الحارقة والحجار .

ـ ليش ؟ خير إن شاء الله .

ـ بصراحة احنا عرفنا انهم المستوطنين بدهم يهجموا على مدينتنا ـ أريحا ـ وعشان هيك إحنا حضرنا كل شيء ، وموزعين كويس ، وسهرانين . بس في أشياء مضايقيتنا .

ـ مضايقيتكم ؟!

ـ أيوه . البيوت والشوارع كلها مضوية ، وهذا بيكشف تحركاتنا ، وبيمكن المستوطنين والجنود ، إنهم يشوفونا ويلاحقونا ،

ـ والمطلوب ؟

ـ فهمك كفاية ، بدنا تخففوا الأضوية ،

ـ بس هيك ؟

ـ أيوه ، بس هيك ، و . . .

ـ و . . . وايش ؟ أمرك سيدي القائد ، الظاهر انت قائدهم ،

ـ احنا كلنا أسياد نفسنا ، كلنا مثل بعض ،

ـ طيب ، شو الاشي الثاني اللي ممكن نعمله ؟

ـ احنا متوقعين المعركة تكون حامية . يعني بصراحة متوقعين يوقع منا جرحى وحتى شهدا .

ـ يا ساتر .

ـ طبعاً ، معركتنا فيها شهدا وجرحى ، مثل ما بنصيبهم وبنجرح وبنقتل منهم كما هما بيقتلوا وبيجرحوا منا ، وتنساش احنا معنا حجار وزجاجات حارقة ، وهم معهم رشاشات وقنابل .

ـ طيب ، شو أوامركم ؟

ـ ما يؤمر عليك ظالم ، يمكن نحتاج سيارات للاسعاف ونقل الجرحى للمستشفى ، والشباب قالوا انه عندك سيارة .

ـ فعلاً عندي سيارة . . .

وفكر سامي قليلاً ثم أضاف ،

ـ سيارتي بأمركم ، و . . . راح اتصل ببعض الجيران يكونوا جاهزين مع سياراتهم . لكن كيف عرفتوا انه عندي سيارة ؟

ـ احنا بنعرف كل شيء في مدينة أريحا . هذا واجبنا . كيف ممكن نخوض المعركة إذا ما بنعرف كل شيء عن مدينتنا ومخيماتنا و . . . عن العدو وتحركاته . وما تنسى إنها المدن الفلسطينية ، سبقتنا في المعركة .

ولم يعرف سامي ماذا يقول ، وهو يرى الولد ـ يمد يده ويشد عليها ويشكره باقتضاب ثم يستدير ويختفي بين أشجار البرتقال والليمون واليوسفي وانبومل .

عندما دخل سامي وهو شارد الذهن ، سألته زوجته بلهفة .

ـ شو في يا سامي ؟

ـ في معركة يا مريم .

ـ وين ؟

ـ عندنا في أريحا . ليش أريحا مش فلسطينية ؟ أعطني مفاتيح السيارة .

ـ لازم اتفقد السيارة ، وأروح أعبي بنزين وأكون مستعد أنا وبعض أصحاب السيارات خاصة من جيرانا ، هيك الأوامر .

ـ أوامر يا سامي .

تطلع إليها وهو يبتسم .

ـ أوامر الشباب ، أحد قادتهم هو اللي دق جرس الباب ، طلب مني بعض الشغلات و . . . راح يواصل القيام بواجبه .

ـ عرفته ؟

ـ ما عمريش شفت هالولد ، بعدين ، كيف بدي أعرف كل ولاد أريحا . على كل روحي انت نامي وارتاحي وانا بأعبي بنزين ، وبامر على المستشفى بأحكي للطبيب المناوب انه يحضر نفسه هو وكل اللي في المستشفى .

ـ سامي .

ـ ايوة يا مريم .

ـ نفسي أولد في الشهر السابع .

ـ بعدك في الشهر الخامس يا مريم .

ـ ولو ، بأقلك نفسي . . . أمنيتي . . . حتى بيجي إبنا . . .

ـ أو بنتنا . . .

ـ كله واحد . . . حتى بيجي ابنا ، أو بنتنا . . .

وأشوفه بيحمل حجار وبيركض في الشوارع و . . .

ـ ما راح تخافي عليه أو . . . عليها .

ـ أكيد ، راح أخاف كثير ، بس مش راح أمنعه أو . . . أمنعها .

وعندما احتضن سامي زوجته سمع إطلاق رصاص ، فدفع زوجته بلطف ، وهو يقول :

ـ بدأت معركة الشباب يا مريم . . . لازم أسرع وأجهز نفسي ، وأخبر المستشفى وأنبه الجيران . . . وعندما صار بالباب ، نادى مريم ، فأطلت عليه .

اطفي كل الأضواء ، بس خللي الضو الداخلي مشعل .

ودهش سامي وهو يرى أن أضواء الشوارع أطفئت ، والأضواء أمام البيوت وفي الشرفات كلها أطفئت .

واشتعلت أريحا .

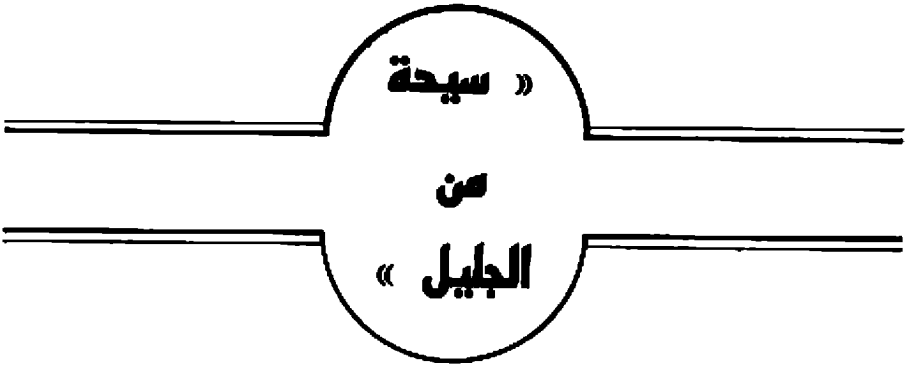

« سيحة

عن

الجليل »

خالتك أم حنا مثل كل نسوان فلسطين ، تحب أن تحتاط لمآسي الحياة ومفاجآتها . لذا ادخرت أم حنا ذهبتين رشاديتين عثمانيتين قديمتين على مدى نصف قرن من الزمان ، دائماً كانت تردد :

مخبيتهن لليوم الأسود .

واليوم تقول خالتك أم حنا ،

ـ اليوم هذا يوم صعب ، يوم أسود ، اليوم هذا أسود على عدوينا ، وإن شاء الله أبيض علينا كلنا ، وعشان يكون هاليوم أسود على عدوينا لازم كلنا نعطي ونقدم .

راحت خالتك أم حنا لعند الجماعة الذين يجمعون التبرعات والدعم لأهلهم في غزة والضفة . قالت :

ـ طول عمرنا أهل ، وشعب واحد . هما ما نسيونا ، واحنا ما نسيناهم ، أنا معي هالذهبيتين ، وبدي توخذوهن وتودوهن لأهلنا هناك في غزة والقدس ونابلس والخليل .

قولوا للناس : خالتكم أم حنا باتسلم عليكم ، وباتقلكم :

كل شدة بهزول . آ . . . قولوا لهم : العين بصيرة والإيد قصيرة ، وخالتكم أم حنا خجلانة منكم لأنه ما عندهاش إشي توديلكم إياه . قولوا لهم : أم حنا جوزها مات ، وابنها استشهد ، لا وبناتها تجوزت ، قولوا لهم : خالتكم أم حنا صارت على حفة قبرها ، ومش محتاجة لذهب ، وفرحانة لانكم بترفعوا الراس . قولوا لهم : النصر قريب إن شاء الله ، ويوم ملقانا قريب .

قالوا لها ـ أعضاء اللجنة الشعبية لدعم الانتفاضة ـ يا خالة ام حنا أهل بلدنا جمعوا أشياء كثيرة ، و . . .

وقبل أن يكمل أي واحد منهم كلامه ، قالت :

ـ والله غير توخذوا الذهبتين وتودوهن ، أو تشتروا منهن تموين لأهلنا . أم حنا مش أقل من أي فلسطيني في « أم الفحم » .

وأخذ أعضاء اللجنة الشعبية الذهبيتين ،

وقالت أم حنا :

بسلموا على أهلنا ، سلموا عليهم كثير ، يا ريت في حيل حتى أروح معكم أوزع التموين ، وأزغرد للولاد الحلوين والبنات الحلوات .

ومن الجليل تحركت المظاهرات ، وخالتك أم حنا مشت ببطء ، ولكنها مشت في المظاهرة ، والسيارات نقلت التموين من الجليل وقرى المثلث للأهل في غزة ومخيماتها ، وللأهل في

الضفة الغربية .

وأهل غزة عرفوا بحكاية ذهبتي خالتهم « أم حنا » وانبسطوا ، وقال قائلهم :

ـ الدم ما بيصير مي ، و . . . هذي فلسطين يا ناس .

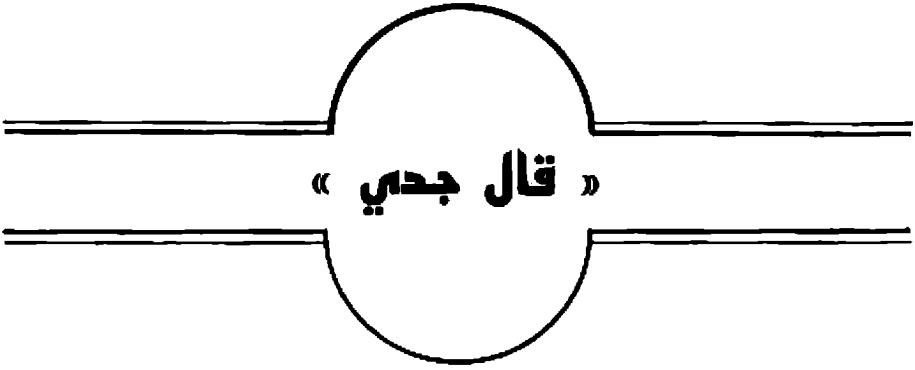
« قال جدي »

مات جدي قبل أن أولد . مات جدي قبل أن يتزوج أبي أمي ، أي قبل أن أولد بسنوات لا تقل عن عشر .

قال لي أبي : جدك لم يحك حكاية وقعت لغيره ، مثلاً : لم يكن يبدأ حكايته : حدث مع فلان أو علتان . لا . جدك كان يقول : وقع ، هذا لنا ـ بقصد هو وجماعته ـ أو كنت أسير ذات يوم و . . . أو عندما هاجمنا قطاع الطرق ، أو عندما دخل الانكليز وخرج الأتراك ، أو عندما كنت في الحرب ، في بلاد الرومي ـ يقصد أيام السفر برلك

ـ وكنت أحارب وأنفخ البوق (بور زينجي) .

لا أدري يا ولدي كيف أصف جدك لك ، إنه يشبه ابنك الصغير غسان عندما يكبر . أي والله ، حتى أن ابنك غساناً ـ وهو يميل إلى القصر رغم أنه تخطى العاشرة ـ يمشي مثل مشية جدك وكان جدك خفيف لحم الجسد، وكان إذا ركض يسبق الفرس الأصيلة ، أما إذا ضرب فإنه يهوي بدبسته على كتفي خصمه ونادراً ما ضرب على الرأس ، لأن ضربة الرأس بدبسته الثقيلة ، لا بد ، ستكون قاتلة . . .

وكان جدك إذا ما ضرب ينسحب ، ذات يوم قال لي : اضرب وأنسحب ، الأحمق هو الذي ، بعد أن ضرب خصمه ، ينتظر في نفس المكان . في ليالي الشتاء الثقيلة ، وبعد أن تقدم جدك ، وصار في الستين ، وتخلى عن . . . لا أعرف ماذا أقول . ليس اللصوصية أو قطع الطرق ، لا ، وإنما مداهمة البيوت التي عليها العين ، بعني البيوت التي فيها شيء يسرق ، كان يجلس في الحارة ، هل تعرف ماذا يعني الحارة ؟ هززت رأسي وقلت : يعني المقعد .

في ليالي الشتاء الثقيلة ، كنا نوقد النار ونصب القهوة السادة ، فاهم يعني شو سادة ؟ أجبت نعم ، القهوة بلا سكر . كان الرجال يحضرون ويمضون وقتهم معاً في تجاذب الحديث ، ورواية القصص ، والحكايات ، فإذا كان جدك غائباً ، فإنه لا يكون للسهر طعم .

كان جدك يقص الحكايات التي وقعت له ولأصحابه ، وهم قد ظلوا أصحابه الأوفياء حتى ماتوا واحداً بعد الآخر ، وجدك يا ولدي عاش مئة وعشرة أعوام ومرض مرة واحدة ، هي مرضة الموت ، وكانت أيامه قليلة .

ما كان جدك يقول أنا . أعوذ بالله من شر أنا . يعني ما كان يتباهى بنفسه ، ولا يدعي ، ولا يفشر أبداً . كانت حكاياته وقصصه تعلم وتسلي ، ولهذا تناقلها الناس ، وأخذوا منها الحكمة والوفاء والطرافة .

آه جدك كان يدخن ، كان يلف سيكارة رفيعة ، يشعلها بأناة ، وينفخ دخانها من بين شفتيه خيطاً ناعماً مديداً . نعم لم

يدخن السكائر الانكليزية . تعرف يا ولدي : الانكليز منعوا تدخين الدخان العربي الذي كان أهلنا يزرعونه في أرضهم ، وفرض الانكليز تدخين علب السكائر التي أحضروها وملأوا بها الأسواق . جدك قال : لن أدخن ، وتوقف عن التدخين . ليس لأنه خاف أن يحبسه الإنكليز ـ وقد حبسوا كثيرين ـ ولا لأنه لم يجرؤ على زراعة دخانه في أرضه ، فقد كان بمقدوره ـ أن يفعل . ولكن ، لأنه لم يشأ أن يدخن السكائر الانكليزية .

قال جدك : مرة كنت في الطريق إلى يافا ـ وطبعاً كان يمشي على قدميه رغم وجود السيارات ـ وقد مر بي جمّال ـ هل تعرف ماذا يعني جمّال ؟ هززت رأسي . يعني ، يا أبي . رجل يمشي وراء جمله .

جدع يا ولدي . نعود لحكاية جدك . قال جدك : مر بي جمال ، على جمله زبل ، وكان يضرب جمله ويصرخ به : بلا . حيت . سألني الرجل وهو يتوقف عن ضرب جمله ويبطىء من سيره : يا عم ، هل مر بك الجمالون ؟ قلت : مروا يا بني . عاد وسألني : هل أستطيع اللحاق بهم لو أسرعت ؟ قلت : لا يا ولدي . قال الجمال وهو يهز رأسه : عجيب ، لماذا يا عم ؟ لأنك إن مشيت براحتك ستلحق بهم . عندئذ هز برأسه واستأنف ضرب مؤخرة جمله .

وابتعد الجمال وجمله حتى غابا عن عيني . وبعد أن مشيت قرابة ساعة زمن رأيت أمامي الجمال ، اي والله ، نفس الجمال ، والجمل وقع على حافة الطريق . لقد مال الحمل على ظهره فوقع الجمل المسكين مع الحمل وانكسرت رجله .

قلت : سامحك الله يا رجل . ها انتذا لم تلحق باللذين سبقوك .

سألني : ماذا أفعل يا عم . قلت له : لم تسمع مني من قبل . ومع ذلك فك الحمل عن جملك ، واذهب إلى القرية ، هناك ، واطلب من الناس مساعدتك ، ولعل تجد بينهم من يجبر ساق جملك . وسأنصحك يا ولدي لا تضرب جملك في المرة القادمة ، فأنت غشيم في معرفة طباع الجمال . إنها يا ولدي شديدة الإعتداد بنفسها ، وهي صبورة ، ولكن لصبرها حدوداً ، فإذا ما ثار الجمل فربما يؤذيك . والجمل يعترف بالجميل ، ويخدم صاحبه ، ولكنه ، إن حقد بسيفاجئك ذات يوم ، بعد أن تكون قد نسيت ما فعلته معه .

سألني : ماذا تعلمت يا ولدي من هذه الحكاية ؟ قلت : الكثير يا أبي . أخذ أبي يلف سيكارة صغيرة ، سيكارة نحيلة ، ثم أشعل السيكارة ونفث دخاناً نحيلاً ، وأغمض عينيه قليلاً ، وما إن رأى ابني غسانا يمر أمامنا بمشيته الغريبة ، ولا تخرج قدماه صوتاً وهو يمشي .

أطفأ أبي سيكارته وقال :

كلما يصيبني الحزن ، أو يخون صداقتي أحد ، أو أرى مستعجلاً يريد أن يصل بسرعة أعود وأتذكر واحدة من حكايات جدك . كان جدك يردد : العين فارغة ، لا يشبعها الكثير ، ولكن حبة تراب تملأها عند الموت . من التراب جئنا وإلى التراب نعود ، يا ولدي .

ثم سألني أبي : ماذا تريد أن تفعل بهذه المسجلة وهذه الأشرطة ؟

قلت : سنسجل حكايات جدي ، ثم أفرغ الأشرطة وبعدئذ أكتب تلك الحكايات والقصص . عندما تطلع غسان إلى شاشة التلفزيون ، رأى الفلسطينيين يشتبكون مع الجنود الصهاينة . رأى غسان ، ورأينا معه عجوزاً يمشي ببطء عاقداً يديه وراء ظهره وقد دفع رأسه أمامه .

طلع من زقاق ثم مر من أمام الجنود الذين كانوا يغطون رؤوسهم ووجوههم بالأقنعة ، ويعدون بنادقهم لإطلاق القذائف الدخانية المسيلة للدموع .

قال غسان : إنه يشبه جدي ، أليس كذلك ؟ سأله أبي : كيف عرفت : قال غسان وهو لا يبعد نظراته عن شاشة التلفزيون : أبي وصف لي جدي .

عندما صار العجوز على مقربة من الفتية والأطفال الفلسطينيين أمال رأسه قليلاً كأنما يعطي إشارة البدء ، فأنقذ الفتية والأطفال بالحجارة .

عندما اندفع جندي صهيوني وهرواته ترتفع في الهواء ، وهو يوشك أن يهوي بها على رأس العجوز ، صرخ غسان : جدي ، دير بالك . وأغمض أبي عينيه ، بدا وكأنه يغفو ، وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة ، ثم تكلم بهدوء : غداً سأسافر ، لقد اطمأننت عليك وعلى أولادك . سأله غسان : أين ستسافر يا جدي ؟

قلت ستبقى معنا كثيراً .

قال أبي :

ـ سأسافر لأخبر جدك عنك يا غسان ،

ثم أخذ أبي يغني أغنيته ، الشجية القديمة بصوته الخشن الوقور :

جمال محمله وجمال بتعن .

وأيام المضن عالبال بتعن .

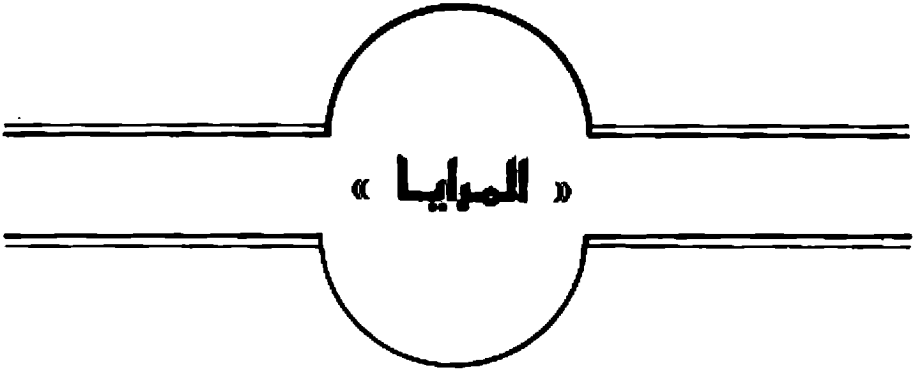
« المرايا »

صرخ الضابط بجنوده ،

ـ اتبعوني .

فتبعوه ، مشى بسرعة ، والأولاد هرولوا أمامه ، هو وجنوده .

لكن ، فجأة ، ظهر الأولاد والبنات والشباب والشابات من على أسطحة المنازل ، ومن زوايا الأزقة ، والتفوا من وراء الجنود ، وانهالوا عليهم بالحجارة ، فصرخ الضابط ،

ـ وقعنا في كمين ، اتبعوني ،

وصرخ جندي سائلاً ،

ـ إلى أين سيدي ؟

ـ إلى الوراء . انسحبوا .

ودهش الضابط والجنود للذي يحدث .

إنها معركة حقيقية ، فيها هجوم والتفاف ، ومناورة ، وخدع عسكرية ، وكل هذا يفعله أولاد وبنات وأناس ليسوا عسكريين . اندفع أهل مخيم النصيرات وراء الجنود ، بالمقاليع والنقيفات ، وبالحجارة التي يقذفونها بأيديهم ، أخذ بعض الصغار يرسمون

شارة النصر أمام الصحفيين ، في وجه الجنود والضباط ، بينما كانت السماء « تمطر » حجارة على رؤوس ووجوه الجنود المتراجعين .

أطلق الجنود قذائف مسيلة للدموع . أطلقوا رصاصاً مطاطياً ، أطلقوا شتائم بالعبرية والعربية والانكليزية .

اندفع المتظاهرون إلى الأمام ، وبدأت مكبرات صوت تعلن عن تحرير المخيم . جاءت سيارات عسكرية تحمل جنوداً بخوذات ، وهراوات ، وبنادق تطلق رصاصاً حقيقياً قاتلاً ، وتطلق رصاصاً مطاطياً جارحاً .

وأحد الأولاد تقدم كثيراً ، حتى صار وجهاً لوجه مع بعض الجنود ، انقض الجنود على الولد ، وأمسكوا به ، وهو صرخ مستغيثاً ، فتقدمت عجوز بسرعة ، رغم ثقل جسدها ، وهجمت على الجنود ، وأخذت تنادي الجارات ، اللواتي تجمعن وأطلقن الصراخ ، ونداءات الاستغاثة ، إلى أن خلصن الولد من بين أيدي الجنود ، ولقد ركض الولد ، ثم توقف والتقط حجارة صغيرة بيديه الصغيرتين ، وبدأ يشجع رفاقه على الهجوم لإنقاذ الأمهات والجدات والجارات .

عندما أهوى أحد الجنود بعقب بندقيته على كتف المرأة العجوز ، صرخت .

ـ نداء ، نداء ، نداء ، إلى الجميع ، طلعوا المرايا . المرايا . . . المرايا . . . وذهل الجنود من العجوز التي تلوح بيدها وتهز أصبعها الشاهر في وجوههم .

ثم ذهلوا أكثر وهي تمشي إلى الوراء ، ووجهها في

وجوههم ، وظهرها باتجاه المتظاهرين ، ومثلها كانت قد أخذت النسوة يمشين .

وذهل الجنود والضباط أكثر ، وقادة السيارات العسكرية وهم لا يستطيعون فتح عيونهم ، أو رؤية شيء مما يحدث ، لأن مئات المرايا قد سلطت باتجاههم ، عاكسة أشعة الشمس ، مفقدة إياهم القدرة على الرؤية .

سائقوا السيارات العسكرية ، أسرعوا بسياراتهم فارتطمت سيارتان ببعضهما وانطلقت شتائم ولعنات . الجنود أخذوا يطلقون الرصاص ويصرخون واحدهم في الآخر ، محذرين من أن يقتل واحدهم الآخر ، ولذا أخذوا يطلقون في الهواء وهم يحاولون التراجع حيث تتمكن عيونهم من الرؤية بعيداً عن المرايا .

قال الضابط وهو يهز رأسه :

ـ حرب غير مفهومة . ليست هكذا الحروب ، دائماً كنا ننتصر بسهولة ، ولكن . . . وكان الفلسطينيون يضحكون وهم يرون حالة الجنود ، والمفاجأة التي أذهلتهم . . . مفاجأة سلاح المرايا .

الولد قال :

ـ عندنا أسلحة كثيرة ما استخدمناها بعد .

وسأل العجوز التي أنقذته :

ـ مش هيك يا ستي ؟

وسته ، ضحكت وهي تردد :

ـ بهدلناهم ، وقللنا قيمتهم . . . أي والله يا ستي !

كلمة ٧
١ ـ عليهم ١١
٢ ـ الخبيزة ١٧
٣ ـ ارحلوا ٢٣
٤ ـ المعلم ٢٧
٥ ـ الوطني ٣٣
٦ ـ الولادة ٣٩
٧ ـ p.l.o ٤٥
٨ ـ يما ٥١
٩ ـ الزيتون ٥٧
١٠ ـ الشهيد والنار ٦٣
١١ ـ الإعدام ٦٧
١٢ ـ الزفة ٧٣
١٣ ـ مين خلف ما مات ٧٧
١٤ ـ بنزين ٨٣
١٥ ـ الفيلسوف ٨٩
١٦ ـ الجواز والتصريح ٩٥
١٧ ـ حاضر سيدي القائد ١٠١
١٨ ـ سيدة من الجليل ١٠٩
١٩ ـ قال جدي ١١٥
٢٠ ـ المرايا ١٢٣